الدواة والقلم فى الاثار العربية الاسلامية
فى العصر العباسي

الدكتور صلاح حسين العبيدي
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

اهتم العرب المسلمون بالخط والكتابة ، وقد شمل هذا الاهتمام ايضا الادوات التي كانت تستخدم لهذين الغرضين ، حيث ساهمت تلك الادوات مساهمة فعالة في تقدم البشرية واسعادها .

لذا فقد شعرنا بمدى حاجتنا الى دراسة هذه الادوات بشكل يجمع بين ما رواه المؤرخون في كتب التاريخ والادب وبين ما حصلنا عليه من اثار وصور لمختلف ادوات الكتابة مما يكمل الصورة التي يجب ان تكون عليه تاريخيا واثريا .

واذن فمن مادتي التاريخ والاثار خرجنا بهذه الدراسة وهي محاولة قصدنا منها سد ثغرة في مجال تفتقر اليه المكتبة العربية .

وقد اشتمل هذا البحث على دراسة لاداتين من ادوات الكتابة « الدواة والقلم » آملين ان تتبعهابدراسة اخرى لبقية تلك الادوات .

فالدواة ما يكتب منه ، والجمع دُوىً ودِوىً . ودواء ودَوَاء ، ودوايا[1] والعدد القليل دويات[2] .

---

(١) العسكري ، كتاب التخليص جـ ٢ ص ٧٠٠ .
انظر القلقشندي، صبح الاعشى ، جـ٣ ص٤٣١ .

(٢) العسكري ـ المصدر السابق ، جـ٢ ص ٧٠٠ ، والقلقشندي ـ المصدر السابق جـ ٣ ص ٤٣١ .

وتشير المصادر الادبية الى ان العرب في العصر الجاهلي استخدموا الدواة في كتاباتهم ، وفي هذا يقول شاعرهم[٣] :

اكب عليه كاتب بدواته يقيم يديه تارة ويخالف

ويقول سلامة بن جندل[٤] :

اكب عليه كاتب بدواته وحادثه في العين حده مهرق

وعندما ظهر العرب المسلمون على مسرح التاريخ ، زادت اهمية الدواة وذاعت شهرتها في جميع الارجاء الاسلامية لاكتسابها الصفة الدينية ولعلاقتها المباشرة بعلوم الدين المختلفة من تفسير وحديث وفقه وغيرها . حيث اصبحت عاملا مهما في كتابة المصحف الشريف وانتشاره في الاقطار العربية الاسلامية وهناك سبب اخر في هذه النظرة الدينية للدواة وهي ورود ذكرها في القرآن الكريم مما جعل لها تلك المكانة المرموقة في قلوب الناس . قال الله تعالى « نون والقلم »[٦]اراد الدواة والقلم ، اذ الدواة هي المناسبة في الذكر لذكر « نون والقلم »[٥] اراد الدواة والقلم ، اذ الدواة هي المناسبة في الذكر لذكر القلم وتسطير الكتابة في قوله تعالى « نون والقلم وما يسطرون »[٦] . ومنه قول الشاعر :

اذا مـا الشـوق يرجـع بي اليهم القت النون بالدمع السجون

---

(٣) المفضل ، المفضليات ٢/٨١

(٤) سلامة بن جندل ، الديوان ص ١٥٥-١٥٦ .

(٥) قرآن كريم - سورة القلم ، الاية١ . وقد ذهب ابن عباس والضحاك والحسن وقتاده من المفسرين الى ان « النون » هي الدواة ، والقلم هو القلم انظر تفسير الطبري جـ٢٩.ص١٥ - ط٢- مطبعة الحلبي - القاهرة . والتفسير الكبير للرازي جـ٣ ص١٧٧ (المطبعة البهية المصرية) وانظر في تفسير الحروف المقطعة في اوائل السور (تفسير الرازي جـ١ ص٣-١٢) وتفسير (ن) ايضا في تفسير صورة القلم ج٣ص٧٧ .

(٦) قرآن كريم - سورة القلم- الاية ١

فتكون في « الاية قسم الدواة والقلم ، فأن النفعه بهما بسبب الكتابة عظية وان التفاهم تارة يحصل بالنطق وتارة يتحرى بالكتابة[٧] .

اما الجانب الاخر في هذه الدواة فهو جانب علمي وثقافي ينطلق من كون الدواة ساهمت في نشر العلوم والاداب والفنون ، وعملت على توسيع رقعة العلم والمعرفة بين الناس .

ولقد لفتت الدواة انظار الشعراء اليها ، فكانوا يكثرون من وصفها وقول الشعر فيها ، قال الشاعر يصف دواة واقلاما[٨] :

في حشاها من غير حرب حراب ... وهي امضى من نافذات الحراب
قد بعثنا ام المطايا ... والمنايا زنجية الاحساب

واهدى ابو الطيب عبد الرحمن بن احمد بن زيد بن الفرح الكاتب الى صديق له دواة ابنوس محلاة معها الابيات التالية[٩] :

لم ارسوداء قبلها ملكت ... نواظر الخلق والقلوب معا
لا الطول ازرى بها ولا قصر ... لكن اتت للوصول مجتمعا
فوقك جنح من الظلام بها ... وبارق باتلافها لمعا

اما المادة التي صنعت منها الدواة فكانت متنوعة فهي من المعدن مثل النحاس والفولاذ[١٠] مرة ومن الاحشاب ، كالابنوس والساسم والصندل الاحمر[١١] مرة اخرى الى جانب اتخاذها من مادة الزجاج[١٢] . وفي نفس الوقت اقبل الصناع على تكفيت الدوايا النحاسية بالذهب او الفضة او بهما.

---

(٧) انظر تفسير الرازي جـ٢٠ ص٢٤٧ .
(٨) الشريشي ـ شرح مقامات الحريري جـ١ ص٢٤٧ .
(٩) القلقشندي ـ المصدر السابق جـ٢ص٤٣٣
(١٠) القلقشندي ـ المصدر السابق ج٢ص٤٣٢
(١١) القلقشندي ـ المصدر السابق ج٢ ص٤٣٢
(١٢) مرزوق ـ الفنون الزخرفية الاسلامية في العصر العثماني ص١٤١ .

وربما يكون الدين عاملا اساسيا من عوامل هذا التوجـــه الذي حرم اتخاذ الاواني من الذهب او الفضة ، ولا نستبعد ان تكون الدواة وغيرها من الالات مايدخل في باب تحريم استعمالها اسوة بالاواني الاخرى • والواقع ان القرآن الكريم لم ينص صراحة على هذا التحريم والايات التي ورد فيها ذكر الاواني الذهبية والفضية انما تشير الى انها مما يستمتع به المتقون في الجنة[١٣] ولكن الاحاديث نصت صراحة على هذا التحريم[١٤] • بل ان بعض المسلمين كان يتحرج من استعمال الدواة النحاسية المكفتة بالذهب او الفضـــة وان البعض منهم لم يجوز الكتابة بها ، فقد اورد سبط بن الجوزي رواية بهـذا الخصوص حيث قال « لقد حكي لي المجد في حران سنة ٦١٣ هـ قال رأيت بين يدي القاضي علاءالدين الكردي قاضي قضاة الاشرف دواة كانت لي اخذت مني في المصادرة وقيمتها ..... درهم وهي مكفتة بالذهب والفضة فقلت انت قاضي المسلمين وتدعي الورع كيف تستحل ان تكتب في دواة غصب وهي « مكفته بالذهب» [١٥] •

وافضل الدواة عندهم ان تكون ساذجة بغير حفر ولا ثنيات فيهـــا ليامن من مسارعة الوسخ اليها ولا يكون عليها نقش ولا صور[١٦] •

ومن غير المستبعد ان يكون للدين الاسلامي اثر في ذلك • فمن المعروف ان السواد الاعظم من المسلمين يحفظون في اذهانهم ان صناعة التصوير من الذنوب التي يحرمها الدين مراعاة لما جاء عنها في الاحاديث النبوية الشريفة فيجتنبون صناعتها اطاعية لذلك[١٧] •

---

(١٣) انظر سورة الزخرف ـ اية ٧١ •

(١٤) انظر صحيح البخاري ـ الاطعمة جـ٣ ب٢٧ ص٣٧
وكتاب الاشربة جـ٧ ب٢٧ ص١١٣ (مطبعة بولاق)

(١٥) سبط بن الجوزي ـ مرآة الزمان (طبعة الدكن) ق٢ ص١ ص٦٧

(١٦) القلقشندي ـ المصدر السابق جـ٢ ص ٤٣٢

(١٧) انظر صحيح البخاري جـ٤ ص٢٩ ، ٣٠ •

وتشير المصادر التاريخية الى ان الدواة كانت تختلف في الحجم وفي الشكل من حيث الحجم فضلوا المتوسطة منها لاسباب ذكرها القلقشندي[١٨] وفي هذا الصدد يقول « سبيل الدواة ان تكون متوسطة في قدرها لا بالقصيرة فتقصر اقلامها وتقبح ولا بالكثيفة فيثقل محملها وتعجف » .

اما من حيث الشكل فأن الغالب عليها ان تكون مستطيلة مدورة الرأسين[١٩] او تكون مستطيلةمربعة الزوايا ليجعلوافيباطن غطائها مايحتاجون اليه من الورق المناسب لهذا النوع من الدواة[٢٠] .

ولضمان صلاحية الدواة وغيرها من ادوات الكتابة كان على الكاتب كما يقول ابن عبد ربه[٢١] « ان يصلح آلته وادواته التي لاتتم صناعته الا بها مثل دواته فليتعهم ربها » .

وتشتمل الدواة على الاجزاء التالية :

١ ـ المقلمة : وهي المكان الذي يوضع فيه الاقلام ويشغل الجزء الاكبر من الدواة وفي بعض الاحيان كان العرب يستعملون مقلمة منفصلة عن الدواة[٢٢] .

٢ ـ المحبرة ـ وهي المقصود من الدواة، وتتألفمن الجوبة وهي الظرف الذي فيه الليقة والحبر[٢٣] . اما الليقة او كما تسمى بالكرسف فهي قطعة قماش تكون عادة من الحرير والصوف والقطن وهي التي تعين الكاتب على الكتابة لذا كانوا يوصون الكتاب بتجديد الليقة في كل شهر[٢٤] .

---

(١٨) القلقشندي ـ المصدر السابق جـ٢ ص ٤٣٢

(١٩) المصدر السابق جـ٢ ص٤٥٥

(٢٠) المصدر السابق جـ٢ ص٤٥٨

(٢١) ابن عبدربه ـ المصدر السابق جـ٤ ص١٧٣

(٢٢) القلقشندي ـ المصدر السابق جـ٤ ص١٧٣ .

(٢٣) المصدر السابق جـ٢ ص٤٥٨

(٢٤) المصدر السابق جـ٢ ص٤٥٩

٣ ـ المحراك ـ ويطلق عموما على العيدان التي تحرك بها الاشياء ومنها محراك الدواة[٣٥] . ويسميه القلقشندي[٣٦] بالملواق ، وهو ما تلاق به الدواة (اي تحرك) به الليقة وكانوا يتخذونها في اغلب الاحيان من الابنوس لئلا تغيره لون المداد . ويكون الملواق مستديرا مخروطي الشكل عريض الرأس[٣٧] .

٤ ـ المرملة ـ وتشمل على الطرف الذي يجعل فيه الرمل ويكون عادة من جنس الدواة ومحلها من الدواة ما بين المحبرة وباطن الدواة ويكون في فمها شباك يمنع من وصول الرمل الخشن الى باطنها[٣٨] . وكانوا يختارون الرمل الاحمر دون غيره لانه كما يقول القلقشندي[٣٩] يكسو الخط الاسود من البهجة مالا يكسوه غيره من اصناف الرمل .

٥ ـ المنشأة : وهي الظرف واللصاق . اما الظرف فيكون في صدر الدواة من جهة الغطاء الا انه لا شباك في فمه ليتوصل الى اللصاق[٣٠] .

اما اللصاق فكانوا يتخذونه اما من النشأ الذي يحصلون عليه من البر او يتخذونه من الكثير او بالماء . ولغرض تطيب رائحة النشأ والكثيراء كانوا يضيفون اليها بعض الطيوب مثل الماورد والكافور[٣١] .

ومن التقاليد المتبعة في العصر العباسي ان الوزير اذا اراد ان يكتب شيئا في مجلس الخليفة ان يكون في خف الوزير او الكاتب دواة لطيفة بسلسلة ودرج ومغلبة فيها اساحي وطين فاذا اراد ان يكتب علق الدواة في يده اليسرى

---

(٢٥) العسكري ـ المصدر السابق جـ٢ ص٧٠٤

(٢٦) القلقشندي ـ المصدر السابق جـ٣ ص٤٦٨

(٢٧) المصدر السابق جـ٣ ص٤٦٨

(٢٨) المصدر السابق جـ٣ ص٤٦٨

(٢٩) المصدر السابق ص٤٦٩

(٣٠) المصدر السابق جـ٣ ص٤٦٩

(٣١) القلقشندي ـ المصدر السابق جـ٣ ص٤٧

وامسك الدرج بيده اليسنى واذا فرغ اصلح الكتاب واسحاه ووضع الطين عليه وختمه وانفذه[٣٢] .

وقد رأى الخليفة المقتدر ذلك على وزيره علي بن عيسى وهو يكتب كتابا بحضرته فأمر ان يقف بعض الخدم فيمسك الدواة الى ان يفرغ من الكتابة ، وكان علي بن عيسي أول وزير أكرم بهذا ثم صار رسما للوزراء بعده[٣٣] .

وهذا وقد وصلت الينا مجموعة من الدوايا موزعة بين متاحف العالم المختلفة منها دواة من النحاس الاصفر المكفت بالفضة محفوظة في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة (رقم١٥٣٢/١ــ٢) (شكل ١) باسم الامام الغزالي (توفي ٥٠٥هـ ــ م) والدواة مدورة الرأسين ويزين غطائها الخارجي

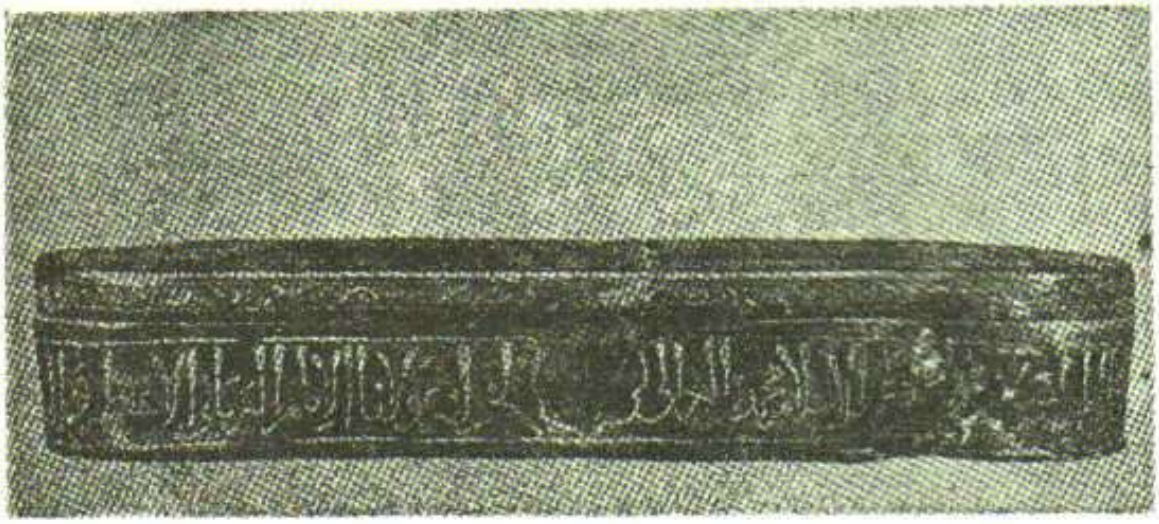

شكل (١)

مؤلفة من ثلاثة دوائر موزعة بالتساوي على سطح الغطاء وعلى حافة الغطاء زخرفة مؤلفة من فرع نباتي متموج ، اما بدن المقلمة فمقسم الى عدة اقسام منها دائرتين متجاورتين تمثلان اوعية الحبر ، ودائرة ثالثة خاصة بالرمل ، وهي التي تسمى بالمرملة ، والى جانب ذلك قسم خاص باقلام الكتابة . اما

---

(٣٢) القلقشندي ــ المصدر السابق جـ٢ ص٤٧٠

(٣٣) الصابي ــ الوزرا ص٣٦٩ . الصابي ص٦٦ وانظر دار الخلافة ص٦٧ــ٦٨ .

الجوانب الخارجية للبدن فهي مزينة بكتابة بالخط النسخي نصها : « لخزانة مولانا الامام الرباني الاعظم والصدر المعظم مفتى الفرق لسان الحق علامة العالم . سلطان العلماء (عمدة) الانام كنز الحقائق افضل المتأخرين محي الدين حجة الاسلام محمد الغزالي » (٣٤) .

وفي متحف الهرمتاج بلينتغراد بروسيا دواة من النحاس الاصفر المكفت بالفضة والنحاس الاحمر وعليها كتابة عربية وفارسية يرقى زمنها الى سنة ٥٤٢هـ - ١١٤٨م (٣٥) وعليها اسم عمر بن الفضل وربما يخص هذا الاسم الصانع الذي صنع الدواة او انه اسم الشخص الذي صنعت له .

وفي المتحف البريطاني بلندن داوة مصنوعة من النحاس الاصفر وسطحها غني بالزخرفة التي كفتت بالذهب والفضة ويحتوي البدن على زخارف نباتية قوامها سيقان ملتفة تنهي باشكال اقرب ماتكون الى الحيوانات منها الى النباتات تتخللها ثلاث دوائر تضم رسوما آدمية تمثل طرب ورقص وتتوسط الجزء الامامي من بدن الدواة قطعة معدنية مثبتة باربعة مسامير تضم كتابة بخط النسخ جاء فيها اسم الصانع وتاريخ الصناعة ونص الكتابة يقرأ كالاتي « عمل محمود بن سنقر في سنة ثمانين وستماية » .

اما السطح الداخلي من بدن الدواة فتتألف زخرفته من فروع نباتية تشبه تلك التي وجدناها على السطح الخارجي يتخللها عدد من الدوائر التي تضم اشكالا آدمية لعازفين وراقصين .

اما غطاء الدواة فيزين سطحه الخارجي اشكالا هندسية بعضها دائري والبعض الاخر مفصص والنوع الاول يتألف من ثلاثة دوائر كبيرة موزعة على السطح بالتساوي وتضم كل واحد منها اربع دوائر فيها رسوم ربما تعبر عن الابراج الاثني عشر . اما النوع الثاني فيتألف من دائرتين مفصصتين

---

(٣٤) Wiet : Catalagle Du Musse Arbe Objets P. 8-81.

(٣٥) Mayer : Islamic Metalworks and their works. P. 81.

تتخللان الدوائر الاولى اما الفرغات المحيطة بالدوائر المذكورة فقد زينت بزخارف نباتية والى جانب ذلك نجد دوائر اخرى صغيرة تضم زخرفة قوامها حرف (Z) والجزء الداخلي من الغطاء يتألف زخرفته من شريط نباتي يدور حول الحافة الخارجية ويضم بداخله مجموعة من الاشكال الدائرية عددها سبعة تضم بداخلها رسوما يعتقد انها الكواكب السبعة وبين كل دائرة من الدوائر المذكورة دائرة صغيرة فيها زخرفة قوامها حرف (Z) وخلفيات هذه الدوائر ذات زخرفة من الفروع النباتية (شكل ٢) .

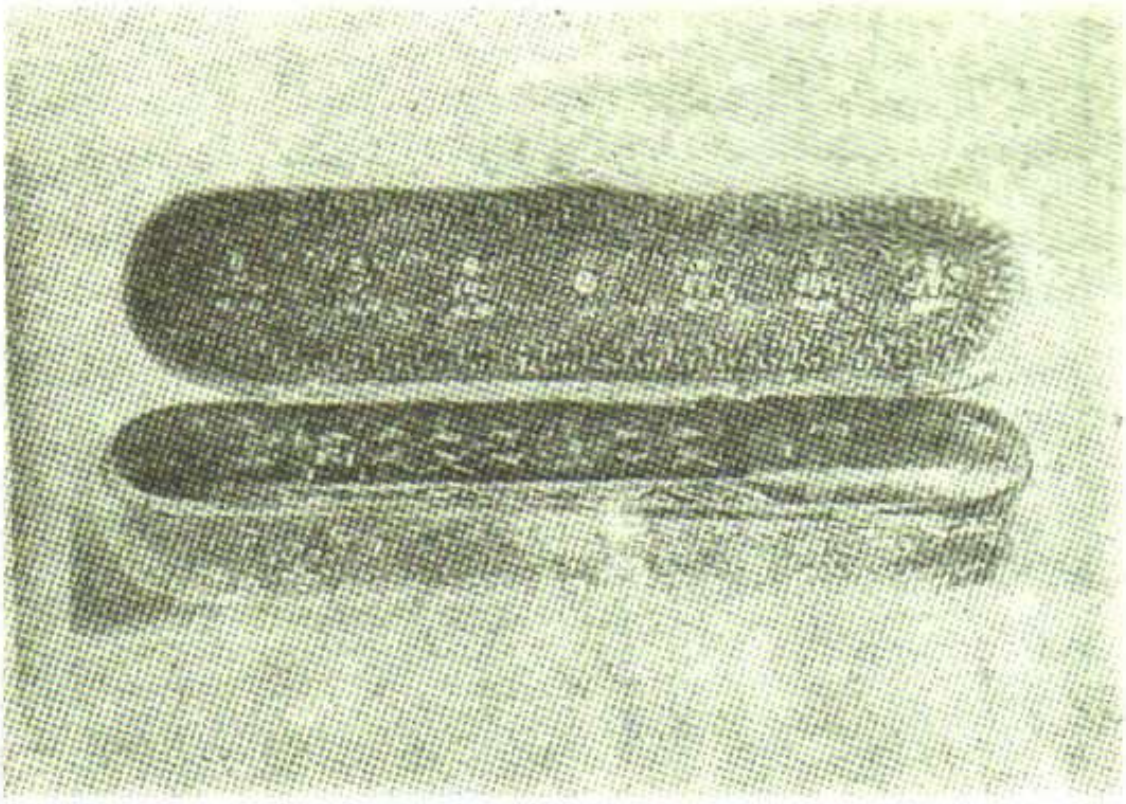

شكل (٢)

وفي المتحف المذكور دواة اخرى من النحاس الاصفر تعود الى القرن السابع الهجري (١٣م) وهي مستطيلة الشكل مربعة الزوايا ومزودة بغطاء وتزين الدواة زخارف قوامها عناصر آدمية ونباتية وهندسية مكفتة بالذهب والفضة ويتصل غطاء الدواة بالبدن من الخلف بواسطة مفصلتين

وسقطة من الامام ويزين السطح زخارف متنوعة نباتية وهندسية . اما باطن الغطاء فيضم كتابة بخط النسخ على مهاد من الزخرفة النباتية الدقيقة ونص الكتابة يقرأ « ان اريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي الا بأذن الله عليه توكلت » .

اما الجوانب الخارجية للبدن فتتألف زخرفته من مجموعة من الاشكال الدائرية تضم رسوما آدمية ربما تمثل الابراج السماوية وحول هذه الدوائر رسوم فروع نباتية ووريقات وانصاف وريقات دقيقة . وبدن الدواة مقسم من الداخل الى عدة اجزاء فنلاحظ مثلا على الجهة اليسرى دائرتين يمثلان وعيه الحبر وقد تكون احداهما للحبر الاسود والاخرى للحبر الاحمر او الذهبي والى جانب هاتين الدائرتين يلاحظ وجود شكل مستطيل ذي غطاء ويسمى بالمرملة وهو الذي يجعل فيه الرمل المخصص اما الجزء المتبقي من بدن الدواة فيسمى بالمقلمة وهو الجزء المخصص لاقلام الكتابة .

ويملك متحف الفن الاسلامي بالقاهرة دواة (شكل ٣) من النحاس

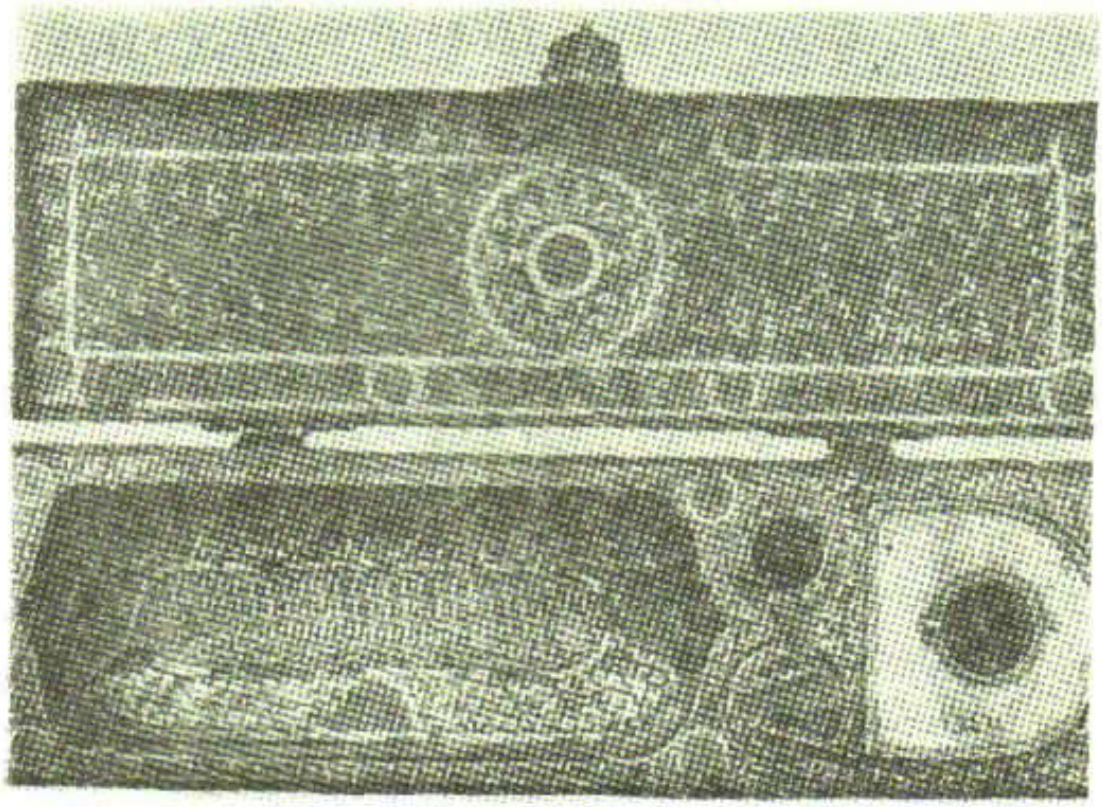

شكل (٣)

الاصفر وهي مكفتة بالذهب والفضة تعود الى القرن الثامن الهجري (١٤م) وشكلها مستطيل وزواياها مربعة ويحمل الغطاء كتابة بخط الثلث يقرأ « عز لمولانا السلطان المالك العالم العامل الغازي المجاهد المرابط المثاغر المؤيد المنصور » ويحيط بهذا الشريط شريط ضيق يتضمن معينات بها على التعاقب زهرات لوتس ورسوم طيور متقابلة وزخارف تبدو تقليدا لكتابة ذات قوائم متقاطعة ويقطع هذه الزخارف دوائر مستديرة وعلى جوانب الغطاء شريط من كتابة بالخط النسخي بأسم السلطان الملك المنصور محمد (توفي سنة ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) وخارج القاعدة شريط عريض به كتابة بخط الثلث تتكرر فيها القاب السلطان المذكور وتقطع هذه الاشرطة دوائر مفصصة تشمل على طيور ناشرة الاجنحة .

واما داخل الغطاء فهو يحتوي على كتابة بالخط الكوفي المجدول المضفر والدائرة تحيط بها طيور محلقة ويحيط بهذا الشريط شريط اخر يضيق به كتابة نسخية بأسم هذا السلطان والقابه . وقاعدة داخل الدواة تتضمن شريطا عريضا بكتابة بخط النسخ نصها (عز لمولانا السلطان الملك المنصور العالم العامل) والجوانب تشتمل على دوائر مفصصة تفصل بينها دوائر تتوسطها اشرطة مستطيلة من الدوائر المفصصة وحافة الدواة من اعلى الفراغات التي تحف فتحات وعاء الرمل والمحابر مغطاة بزخارف بديعة من توريقات حلزونية تتخللها دوائر مستديرة(٣٦).

ومن بين معروضات المتحف العراقي ببغداد دواة (شكل ٤) تشبه من حيث الشكل الدواة السابقة وهي من القرن الثامن (١٤م) والدواة مزينة متنوعة من الداخل والخارج . اما السطح الخارجي فتزينه دائرة كبيرة تضم

---

(٣٦) انظر معرض الفن الاسلامي في مصر ص٩٦٩هـ الى ١٥١٧م . اصدار وزارة الثقافة في جمهورية مصر العربية ١٩٦٩ .

كتابة نصها : « المقر العالي المولوي الاميري المالكي المكي » اما السطح الداخلي فيتألف من ثلاثة اشرطة العلوي والسفلي منهما ضيقين نسبيا يؤلفان حاشية الغطاء العليا والسفلى وقوام زخارفهما فروع نباتية متموجة وتتوسطهما الشريط الثالث وهو اعرض الاشرطة ويضم كتابة بالخط النسخي على ارضية ثابتة هذا نصها : « اذا فتحت دواة العز فاجعل مدادك من جود ومن كرم »[٣٧] .

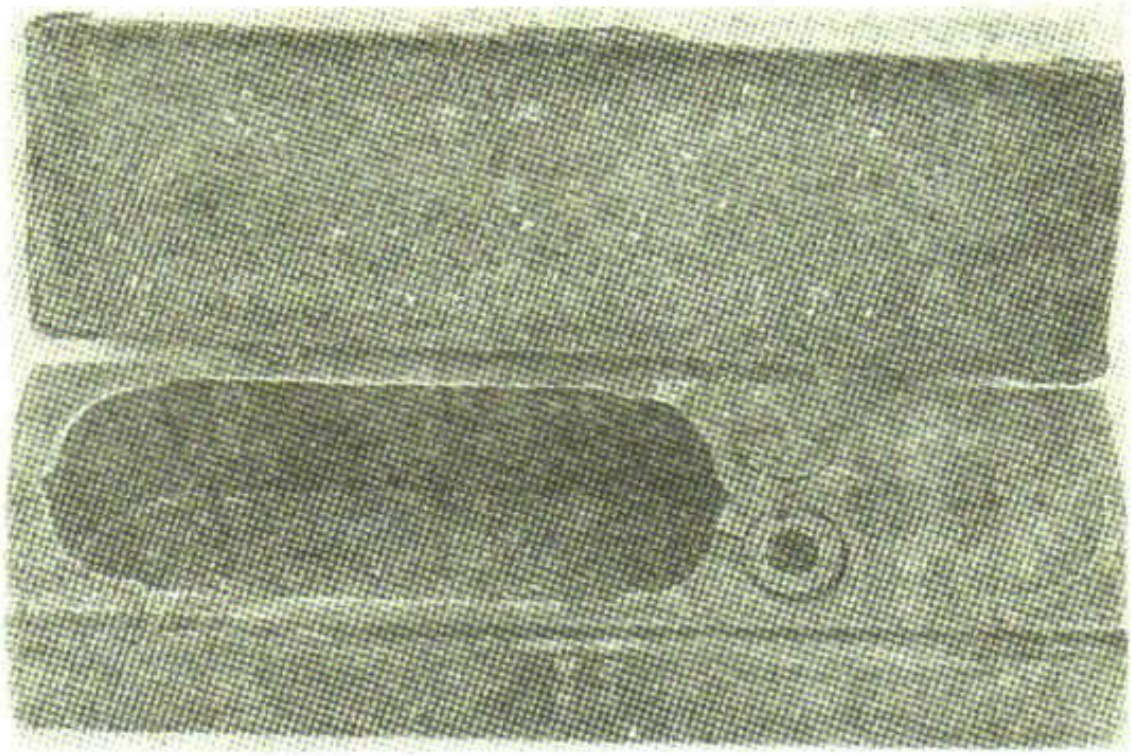

شكل (٤)

والى جانب الدوايا السابقة اشارت الكتب في بعض مواضعها الى المحبرة المفردة عن الدواة وطبيعي ان تكون اصغر حجما واخف وزنا من سابقتها وقد مال الناس الى اتخاذها لخفة حملها وسهولة استعمالها[٣٨] .

---

(٣٧) زكي حسن ـ طلس الفنون الزخرفية ـ شكل ٥٢٠ .

(٣٨) القلقشندي ـ المصدر السابق ج٢ص٤٣٣ .

وكما نالت الدواة اهتمام الشعراء فأن المحبرة هي الاخرى نالت مثل هذا الاهتمام . قال ابو الطالب بن ابي ركب في محبرة ابنوس بحلية صفراء مذهبة اراد رجل ان يقدمها هدية[٣٩] .

جاءتك من غور العلا زنجية ... في حلة من حلية تتبختر
سوداء صفراء الحلى كأنها ... ليل تطرزه نجوم تزهر
كملت باصغر من نجار حليها ... تخفيه احيانا وحينا تظهر
خرسان الا حين يرضع ثديها ... فتراه ينطي ما يشاء ويذكر

وقال الحسن بن لبال في محبرة ابنوس[٤٠] .

وخديسة للعلم في احشائها ... كلف بجمع حلاله وحرامه
ليست رداء الليل ثم توشحت ... بنجومه وتتوجت بهلاله

وكان الكتاب يفضلون المحبرة ذات الرأس المدور الذي يجتمع على زاويتين قائمتين ولا يكون مربعا لانه اذا كان مربعا يتكاثف المداد في زوايا المحبرة فينفذ المداد فاذا كان مستديرا كان ابقى للسداد واسعد في الاستعداد[٤١]

ومن هذا النوع من ادوات الكتابة وصلت الينا محبرة من النحاس المكفت بالفضة . وهي من القرن السابع الهجري (١٣م) محفوظة في متحف برلين وتزين المحبرة زخرفة قوامها ثلاثة اشرطة العلوي والسفلي ضيقان وتضمان فروعا نباتية . اما الشريط الاوسط فاعرض من الشريطين الاولين ويضم هذا الشريط اشكالا دائرية بداخلها دوائر بها رسوم آدمية من بينها صياد يصطاد بواسطة طير من طيور الجوارح . وقد ظهر الجارح هنا على اليد اليسرى للصياد بينما رفع اليد اليمنى نحو الاعلى وقد تكون اشارة لانطلاق الجارح .

---

(٣٩) الشريشي ـ المصدر السابق جـ١ ص٢٠٧ .
(٤٠) المصدر السابق جـ١ص٢٤٦ .
(٤١) القلقشندي ـ المصدر السابق جـ٢ ص٤٥٨ .

وتظهر المحبرة ايضا في المخطوطات المصورة نذكر منها تصوير من مخطوط كتاب الترياق لجالينوس مؤرخ من سنة ٥٩٥هـ (١١٩٩م) محفوظة في المكتبة الاهلية بباريس عليها ثلاثة تصاوير تمثل عددا من الاطباء والتلاميذ في درس علمي ويلاحظ في الصورة من ادوات الكتابة المحبرة وهي موضوعة على الارض مع ادوات اخرى في اماكن متفرقة بين الاطباء وتلامذتهم .

وتلمح المحبرة في صورة ثانية (شكل ٥) في مخطوطة محفوظ في متحف نيويورك والصورة تمثل مدرسة يتصدرها شيخ او معلم وقد تحلق حوله مجموعة من التلاميذ ذكورا واناثا وفي يد كل منهم كتاب مفتوح يتأملون فيه ، وعلى يمين الشيخ عصا طويلة وتشير يسراه الى احد التلاميذ القريبين كانما يعطي امرا للشروع بالقراءة ويلاحظ في الصورة وجود انواع متعددة من ادوات الكتابة فبالاضافة الى الكتاب نلاحظ في المحبرة وهي موضوعة على الارض قريبا من المعلم والمحبرة صغيرة الحجم مزودة بغطاء .

شكل (٥)

وتظهر المحبرة ايضا في تصويره ثالثة في مخطوط محفوظ في المتحف المذكور والتصوير (شكل ٦) تمثل نموذجا لمدرسة تضم مجموعة من التلاميذ ذكورا واناثا ويبدو من غياب المعلم ان التلاميذ في حالة استراحة او فرصة والذي يهمنا في الصورة المحبرة . ويمكن للمرء ان يلاحظ عددا منها مطروحة على الارض في اماكن متفرقة بين التلاميذ والمحابر المذكورة اسطوانية الشكل مزودة بغطاء ولها مقبض من جانب واحد .

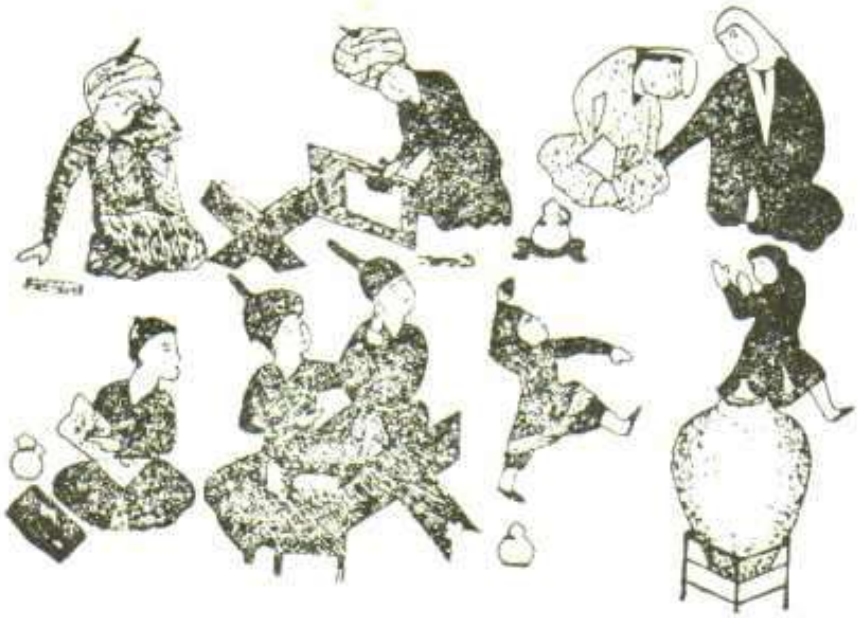

شكل (٦)

والاداة الثانية من ادوات الكتابة . القلم . وهو الذي يكتب به[٤٢] والجمع اقلام وسمي « قلما لانه قلم اي قطع وسوى . وكل عود قطع وحز رأسه واعلم بعلامة فهو قلم[٤٣] » . قال تعالى « اذ يلقون اقلامهم ايهم يكفل مريم[٤٤] .

---

(٤٢) ابن سيده ـ ج١٣ ص٦ .

(٤٣) الشريشي ـ شرح مقامات الحريري ج١ص٢٤٢ .

(٤٤) قرآن كريم . آل عمران ٤٤

ويرى القلقشندي ان تسميته بالقلم جاءت من استقامة القلم نفسه[٤٥] وقيل هو مأخوذ من القلام وهو شجر رخو[٤٦] . وقيل سمي قلما لقلم رأسه[٤٧] .

يعد القلم من اشرف الات الكتابة واعلاها رتبة . اذ هو المباشر للكتابة دون غيره . وقد قال الله تعالى « ن والقلم وما يسطرون » [٤٨] فأقسم به وذلك في غاية الشرف . وشرفه عندما اضاف التعلم بالقلم الى نفسه . اذ يقول في سورة العلق «اقرأ بأسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم . علم الانسان مالم يعلم[٤٩] .

وفي الاحاديث الشريفة ما يشير الى اهمية القلم فقد روى ان النبي (ص) قال « من قلم قلما يكتب به علما اعطاه الله شجرة في الجنة خير من الدنيا وما فيها » [٥٠] .

وروى عن زيد بن ثابت قال : كنت اكتب بين يدى رسول الله (ص) يوما فقام لحاجة فقال لي : ضع القلم على اذنك فأنه اذكر للمصلي واقضى للحاجة[٥١] . ولاتزال عادة وضع القلم خلف الاذن جارية الى وقتنا الحاضر

ويقال للقلم (المزبر) اخذاً من قولهم زبرت الكتاب اذا اتقنت كتابته[٥٢] ومنه سميت الكتب زوبراً . قال ابو ذؤيب الهذلي وهو شاعر مخضرم ادرك الجاهلية والاسلام يصف كاتبا من اليمن .

عرفت الديار كرقم الـدوا ة يزبـره الكاتب الحميري[٥٣]

---

(٤٥) القلقشندي ـ صبح الاعشى ج٢ ص٤٤

(٤٦) المصدر السابق ج٢ ص٤٤

(٤٧) المصدر السابق ج٢ ص٤٤

(٤٨) قرآن كريم ـ سورة القلم ـ الاية١

(٤٩) قرآن كريم سورة العلق ـ الاية١

(٥٠) القلقشندي ـ المصدر السابق ج٢ ص٤٣٥

(٥١) ابن عبدربه ـ العقد الفريد ج٤ ص١٦١ .

(٥٢) المصدر السابق ج٤ ص١٦١ ـ الشريشي المصدر السابق ج٢ ص٤٣٤ .

(٥٣) ديوان الهذليين ١/٦٤

قال الله تعالى (وانه لفي زبُر الاولين)[٥٤] . وروى عن الخليفة ابي بكر (رض) انه دعا في فرضة بدواة ومزبر اي قلم[٥٥] .

وكان الكتاب يتخذون سكينا حادا لبراية اقلامهم[٥٦] . والقلم اذا كان مبريا سمي قلماً واذا لم يكن مبريا فهو يراعه[٥٧] وقصبة[٥٨] .

وكان التفاضل بين القلم والسيف والانتصار لواحدة منهما من بين الموضوعات التي شاع فيها ادب المناظرة فمن ذلك قول ابي تمام[٥٩] :

ان يخدم القلم السيف الذي خضعت
له الرقاب وذلت خوفه الامم
فالموت والموت لاشيء يغالبه
مازال يتبع ما يجرى به القلم
كذا قضى الله للاقلام مذ بُريت
ان السيوف لها مذ ارهفت خدم

وروى لابي الفتح البستي[٦٠] هذه الابيات بتفضيل القلم :

اذا اقسم الابطال يوما بسيفهم
وعدوه ما يكسب المجد والكرم
كفى قلم الكتاب مجدا ورفعة
مدى الدهر ان الله اقسم بالقلم

---

(٥٤) قرآن كريم
(٥٥) القلقشندي ـ المصدر السابق جـ٢ ص٤٣٤
(٥٦) العسكري ـ كتاب التلخيص جـ٢ ص٧٠١
(٥٧) القلقشندي ـ المصدر السابق جـ٢ ص٤٤
(٥٨) ابن عبد ربه ـ المصدر السابق جـ٤ ص١٧٣
(٥٩) القلقشندي ـ المصدر السابق جـ٢ ص٤٣٨
(٦٠) الشريشي ـ المصدر السابق جـ١ ص٢٤٨

وذهب البحتري[٦١] الى ان القلم

تنعـــوا له وزراء الملـــك خاضـــعة
وعـــادة الســـيف ان يخـدم القلـــا

اما المتنبي فأن القلم عنده يأتي من حيث الاهميـة في المرتبة الثانية بعد السيف ويروى مثلا على هذا قوله[٦٢] :

حتى رجعـت واقـــلامي قـــوائل لـي
المجـد للسـيف ليـس المجـد للقـــلم
اكتب بنـــا ابـــدا بعـــد الكتاب بـــه
فانـــا نحـن للاســـياف كالخـــدم

وعد بعض الشعراء محل القلم من الكاتب محل الرمح من الفارس[٦٣] .

يســـك الفارس رمحـــا بيـــد
انـــا الاقـــلام رمـــح الكتبـــة

ومن كلام ابي حفص بن برد الاندلسي « ما اعجب شأن القلم يشرب ومن فضل البنان ان ما تثبته الاقلام باق على الابد ومايتسبه اللسان تدرسه الايام[٦٤] .

ومن كلام ابي حفص بن برد الاندلسي ما اعجب شـــأن القلم يشرب ظلمه ويلفظ نورا قد قلم الكاتب امضى من شباه المحارب »[٦٥] . وقال هشام ابي الحكم احسن الصنيع صنيع القلم والخط الذي هو جني العقـــول[٦٦] ، وقال بعضهم « القلم يجعل للكتب السنا ناطقـة واعينا ملاحظة[٦٧] .

---

(٦١) ديوانه ٤ : ١٥٩. ١٦٠ وانظر الشريشي المصدر السابق جـ١ ص٢٤٩
(٦٢) ديوانه ٤ : ١٥٩
(٦٣) ابن عبد ربه ـ المصدر السابق جـ٤ ص١٧٣ وانظر الشريشي المصدر السابق جـ١ ص٢٤٢
(٦٤) القلقشندي ـ المصدر السابق جـ٢ ص٤٣٦
(٦٥) المصدر السابق جـ٢ ص٤٣٦
(٦٦) القلقشندي ـ المصدر السابق جـ٢ ص٤٣٧
(٦٧) المصدر السابق جـ٢ ص٤٣٨

وقد اطلق المؤرخون على القلم تسميات عديدة بالنسبة لشكله فيقال على سبيل المثال للقلم الذي يكون احدى سنيه اطول من الاخرى قلم محرف . وان تساوت فيقال له قلم مبسوط[٦٨] .

كما اطلقوا على اجزاء القلم تسميات فيقال لطرفيه اللذين يكتب بهما « السنان والشعيرتان »[٦٩] . ولعُقده الكعوب ولما بينها الانابيب ولباطنه الشحمة ولظاهره الليّط[٧٠] .

والاقلام تتفاوت في الجودة والدقة ، فاجودها ان تكون « انابيب القصب اقلها عقدا اكثفها لحما واصلبها قشرا واعدلها استواء »[٧١] .

قال ابراهيم بن العباس لغلام يعلمه الخط « ليكن قلمك صُلباً بين الدقة والغلظ ولاتبره عند عُقدٍ . فأن فيه تعقيد الامور ، ولا تكتب بقلم ملتوي ولا ذي شق غير مستوي »[٧٢] .

ومما ورد في كتاب جعفر بن يحيى الى محمد بن الليث قوله . اما بعد فليكن قلمك محرّفاً لا متينا ولا رقيقا فابره بريا مستويا كمنقار الحمامة ، اعطف بطنه . ورقق شفرتيه[٧٣] .

قال العتابي ، سألني الاصمعي في دار الرشيد : اي الانابيب للكتابة اصلح وعليها اصّبر ؟ فقلت له ما نشف بالهجير ماؤه وستره من تلويحه غشاؤه ، من التّبريه القشور الدرية الظهور الفضية الكسور » .

---

(٦٨) ابن عبدربه ـ المصدر السابق جـ٤ ص١٧٣ .

(٦٩) الشريشي ـ المصدر السابق جـ ١ ص ٢٤٢ .

(٧٠) المصدر السابق ـ جـ١ ص٢٤٣ .

(٧١) ابن عبدربه ـ المصدر السابق جـ٤ ص١٧٣ ، وانظر الشريشي المصدر السابق جـ ١ ص ٢٤٣ والقلقشندي ـ المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٤١ .

(٧٢) القلقشندي ـ المصدر السابق جـ٢ ص٤٤٠

(٧٣) ابن عبدربه ـ المصدر السابق جـ٣ ص١٧٣ ـ الشريشي ـ المصدر السابق جـ١ ص٢٤٤/القلقشندي المصدر السابق جـ٢ ص٤٤١ .

تختلف الاقلام في الطول والقصر . ويرى الوزير ابو علي محمد بن مقله صاحب الخط الذي تضرب بحسنه الامثال ، ان خير الاقلام ماكان طولـــه من ستة عشر اصبعا الى اثنى عشر[٧٤] .

ولما كثرت ظاهرة الخطوط في العصر العباسي اخذ الكتاب والخطاطون يحتفظون باعداد مناسبة من الاقلام في الدواة الواحدة ، وفي هذا يقول ابن مقله ينبغي للكاتب ان تكون اقلامه على عدد ما يؤثره من الخطوط بحيث تكـــون مهيئة للكتابة فلا يتأخر لاجل برايتها[٧٥] .

وكان لكل مادة يكتبون عليها اقلام خاصة بها فاذا كانت المادة رخوة لينة فيختارون لها قلما لين الانبوب وفي لحمه فضل وفي قشره صلابـة ، وان كانت صلبة كان يابس الانبوب صلبه ، ناقص الشحم لان حاجته الى كثرة المـداد في المادةالرخوة اكثر من حاجته اليه في المادة الصلبة ، فرطوبته ولحمه يحفظان عليه غزارة الاستمداد[٧٦] .

ولعل اصدق الاوصاف التي تعطينا صورة للاقلام الجيدة ما اجمله على بن الازهر الى صديق له يستدعي فيه اقلاما : « اما بعد فانا على طـول الممارسـة لهذه الكتابة....وجدنا الاقلام الصخرية اجرى على الكواغد، وامر في الجلود، كما ان البحرية منها اساس في القراطيس . والتي في المعاطف واشد لتصرف الخط فيها ونحن في بلد قليل القصب رديئة . وقد احببت ان تتقدم في اختيار اقلام صخرية وتطلبها من مكانها ومنابعها من شطوط الانهار وارجاء الكروم وان تتمين باختيارك منها الشديدة الصلبة النقية الجلود ، القلية الشحوم ... فانها ابقى على الكتابة وابعد من الحفاء . وان تقصد بانتقائك الرقـــاق القضبـــان الصافية القشور الطويلة الانابيب البعيدة مابين الكعوب » [٧٧] .

---

(٧٤) القلقشندي ـ المصدر السابق جـ٢ ص٤٤٤ .

(٧٥) المصدر السابق جـ٢ ص٤٥٥

(٧٦) المصدر السابق جـ٢ ص٤٤٤

(٧٧) المصدر السابق جـ٢ ص٤٤١